

الافتتاحية

من الحفرة إلى الحفرة

من أين يأتي يأسنا وإحباطنا وقرفنا واعتراؤنا؟

من الهزيمة الأخيرة واعتقال (أو استسلام) صدام في العراق؟

من استسلام القذافي في ليبيا؟

من استسلام عبد ربّه والرجوب، ومن وراءهما، في جنيف؟

من عمل بعض أنظمتنا على تغيير المناهج التربوية إرضاءً لأميركا؟

من نحول بعض من كبريات عواصمنا إلى كاباريهات للدعارة المحلية والعالمية، درءاً للفقر المدقع؟

كلّها أمورٌ وحقائق تبعث فعلاً على اليأس والإحباط والقررف والاعتراؤ، وتجعلنا جميعاً - شباباً وكهولاً - نفكر بالهجرة أو «الأصولية»... أو الاستسلام.

ولكن هل تسألنا يوماً ماذا قدّمنا نحن، الأهل والكتّاب، لأولادنا وأطفالنا كي لا يصلوا إلى ما وصلنا إليه نحن اليوم؟

دعوني أحصر هذه الافتتاحية القصيرة بأمر واحد، خبّرتّه شخصياً طوال الشهور الثلاثة الماضية، بعد إصداري سلسلة من كتب الأطفال بعنوان «حكايات ولد من بيروت». فعلى الرغم من أن هذه السلسلة فازت بالمرتبة الأولى عن فئة «كتب الأطفال الأكثر مبيعاً» في أضخم معرض للكتب في لبنان (اكسبو بيروت، ٢٠٠٣)، فإن عدداً لا بأس به من المعلمين والمعلّمت أعرّب عن امتعاضه منها، إمّا بسبب لغتها التي تستخدم «العامي» و«الدخيل»، أو بسبب ابتعادها عن «التراث». بل كان لافتاً للنظر ما كتبه زميلة سوسن الأبطح (الشرق الأوسط، ١١/١١/٢٠٠٣) عن «متقف لم يتمالك نفسه» أمام مشهد «رئيس تحرير مجلة الآداب [يعني أنا] يقرأ قصة لمجموعة من الأطفال الصغار، تحلقوا حوله في معرض الكتاب العربي في بيروت، من أن يقول: ماذا يفعل هذا المجنون؟»

فلنضرب صفحاً عن هذا المثقف الذي فوجئ بزميل له ينحط إلى مستوى الأطفال (لعله كان ينتظر أن يقوم بهذا الأمر إنسانٌ دوني: «امرأة» مثلاً... أو جاهلٌ بأمر الإعراب والتطق ومخارج الحروف). ولنعد إلى أولئك المعلمين والمعلّمت الذين ساءهم أن تستخدم كلمات مثل: «باي» و«أوكي» و«بوطة» و«بهدل» و«وشوش» و«كمش» و«ياس» و«شنطة» و«طابة» و«زهقان» و«كندرة» و«فجة»... تصوّروا أنهم يعلمون أولادنا ألا يستخدموا هذه الكلمات، بحجة الحفاظ على الأصالة ونقاء اللغة. فهل نستغرب إن تحدّث شبابنا وشاباتنا، الذين درسوا حين كانوا أطفالاً على مثل أولئك المعلمين والمعلّمت، عن الأصالة والنقاء في الأخلاق والدين... والسياسة؟ هل تتصوّر أن من تعلّم طوال طفولته أن يتعد عن العامية و«الدخيل» سيكون قادراً بسهولة في المستقبل على الدفاع عن عروية إنسانية متحررة ومنفتحة، أم أن «دخيل» اللغة سيتم إسقاطه على كل ما ليس صادراً عن مسلمين عرب أقحاح... إن كان لمفهوم القُحْرحة أي معنى اليوم؟

لا يتسع المجال لكي أبين أن لا عيب في إدخال بعض الكلمات العامية في أدبنا، ولاسيما إذا كان موجّهاً إلى الأطفال أو كان ذا أصول فصيحة أو قديمة: ف«وشوش» من «وسوس»، و«كمش» من «أكمش» و«تكمش»، و«زهقان» من «زَهَق»، و«بهدل» عامية قديمة تُفيد التحريس. كما أنه ليس من العيب أن ندرج في كتابتنا المعاصرة ما يسمونه «دخيلاً» (وهو، بالمناسبة، وفي سياق الخطاب السياسي اللبناني الحديث، تعبيرٌ عنصري يسترجع أصداءً خطابات «الجبهة اللبنانية» حيال الفلسطينيين والسوريين... لا حيال الإسرائيليين والأميركان، ويا للمفارقة!) فالقرآن الكريم نفسه، والشعر القديم نفسه، يستخدمان مفردات فارسية أو سامية مشتركة. أم أنه يحقّ للشاعر القديم (لا للخالق وحده) ما لا يحقّ لغيره؟ (التتمة ص ١٢٠)

الصدّاقة والتضامن. غير أنّ الدرس الأعظم الذي تعلّمته من ماجدة خلال الأزمة هو أنّها فعلت ما فعلته لا لأجل فقط بل أيضاً، كما قالت ببلاغةٍ شديدةٍ في الرسالة التي وجّهتها إلى رئيس الجامعة، «لأجل الجامعة الأميركية بالقاهرة، ولأجل مصر، ولأجلنا جميعاً...»

خاتمة

في تموز (يوليو) ٢٠٠٢، بعد رحيل ماجدة عنا، قرّرنا فرّنان وأنا أن نطلق حملةً لجمع الأموال من أجل إنشاء جائزة سنوية للإنسانيات في الجامعة الأميركية بالقاهرة، باسم ماجدة النويهي، عن أفضل أطروحة ماجيستري في الدراسات النسوية/الجنوسية. إنّها لحظة رمزية لتذكّر ماجدة.. لأجلها هي هي التي أعطت الكثير الكثير من حياتها القصيرة، لكنّ المميّزة، من أجلنا جميعاً.

القاهرة

وطوال ستة أشهر، وهي المدّة التي استغرقتها أزمة الخبز الحافي، كنّا على تواصل يومي عبر الإيميل. تشاطرنا لحظات لا تُنسى من الخوف والقلق والغضب، ولكنّ أيضاً من الضحك والخبث: لقد استطعنا فجأةً أن نحيا الأبعاد الكثيرة لعلاقتنا عبر العالم، وبطريقة فريدةٍ في كثافتها وحميميتها. كصديقتين، وزميلتين، وامراتين، والدتين، وكطفلتين شقيقتين كانتا ربّما تلعبان بالنار ولقد أدارت ماجدة أزمة الخبز الحافي: فأجابت عن الأسئلة، وردّت على رسائل الإيميل، واتّصلت بمنظمات أكاديمية مختلفة، وتحدّثت إلى صحفيين كثر. أما رسالة دعمها لي أثناء الأزمة [منشورة ص ١١٦ - ١١٧ هنا] فقد اعتبرتها إدارة الجامعة الأميركية بالقاهرة «عميقة التفكير»، «وأبلغ بما لا يقاس» من رسائل الدعم الكثيرة الكثيرة التي أرسلت إليّ. ومع أنّ أزمة الخبز الحافي استنزفتنا كليتنا، فإنّها كانت تجربةً رائعةً في

تمة الافتتاحية ص ١

من الحفرة إلى الحفرة

أقول لا يتسع المجال لكلّ هذا، ولعلنا نخصّص في الآداب ملفاً كاملاً عن اللغة العربية اليوم، أو عن أدب الأطفال العرب. ما أودّ أن أركّز عليه هنا هو أنّ معظم «أدب» الأطفال عندنا يحضّ على الاغتراب، لا بسبب تحجره اللغوي فحسب، أو إنتاجه الفني الرثّ فقط، بل أيضاً بسبب إغراقه في «رسكلة» (إعادة تدوير) التراث العربي الإسلامي، وكأنّ لا إمكانية لتطور العرب إلا... بتقهقرهم إلى ماضٍ مؤمّل. إنّ ما سماه أحد المثقفين «الاعتراب» (بالعين) هو الوجه الآخر للاغتراب (بالغين المعجمة)؛ فالتطلع بشغف وانبهار إلى الغرب الديموقراطي الأشقر المتحضّر لا يختلف كثيراً من حيث المبدأ عن التطلع بحنين وتقديس إلى الماضي العربي الإسلامي التقني النقي الطاهر. كلاهما يضع حاضرنا بين قوسين: كأنّ لا جمال يُمكن أن يُطلع من حكاياتنا اليومية، بل علينا أن نتطلع دائماً وأبداً إلى ميكى ماوس وعنتره، إلى باربي وقصص الخلفاء الراشدين!

أعود إلى البداية. اليأس والإحباط والقرف والاعتراب: هذه جميعها لم تأتينا من الأعداء «الغريبيين» وحدهم، ولا من أنظمة «الاستبداد الشرقي» وحدها، ولا من أحزابنا «الثورية» فحسب. بل أتت أيضاً ممّا زرعه آباؤنا وأمّهاتنا فينا: من القصص السخيفة عن ماضٍ ذهبي هو نسخة عن الخالق الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾؛ ومن لغة متقعرة جامدة تدفع بالكثير من أطفالنا إلى أحضان الكتب الفرنسية أو الإنكليزية؛ ومن أخلاقية فجّة لا يهتمها الأدب ولا الإمتاع، بل الوعظ ثم الوعظ ثم الوعظ.

إنّنا، في حقيقة الأمر، نخلق في هذه الكتب نموذجاً لما سوف نكرهه حين نكبر، من دون أن ندرك الصلّة بين الماضي والحاضر: نخلق فيها المستبد العادل، ثم نشتم صداماً؛ وكان الذي يفصل بين هذا وذاك - مفهوماً على الأقل - كبير جداً. ونكرس فيها «الأصالة» اللغوية، ثم نتأفّف من بن لادن والجماعات الأصولية؛ وكان تلك منفصلة تماماً - مفهوماً أيضاً على الأقل - عن هذه. وإذا حدّث أن قرفنا من اللغة العربية ومن الأصولية ومن الأخلاقية، واستسلمنا لإغواء الأفلام والكتب الفرنسية والإنجليزية والأميركية، رحنا نعيّب على القذافي استسلامه أمام الغرب، وكان الاستسلامين منفصلان تماماً.

إنّنا بحاجة إلى أن نهز أنفسنا هزاً. أين نذهب؟ إلى أين نأخذ أطفالنا؟ الأرجح أنّنا، إنّ بقينا نشتم الآخرين ونسينا ما نقترفه نحن بحق أطفالنا وأفسنا، فسنبقى جميعنا في الحفرة التي «نجح» صدام والقذافي وحدهما في الخروج منها... ولكن إلى أين؟

سماح إدريس

بيروت